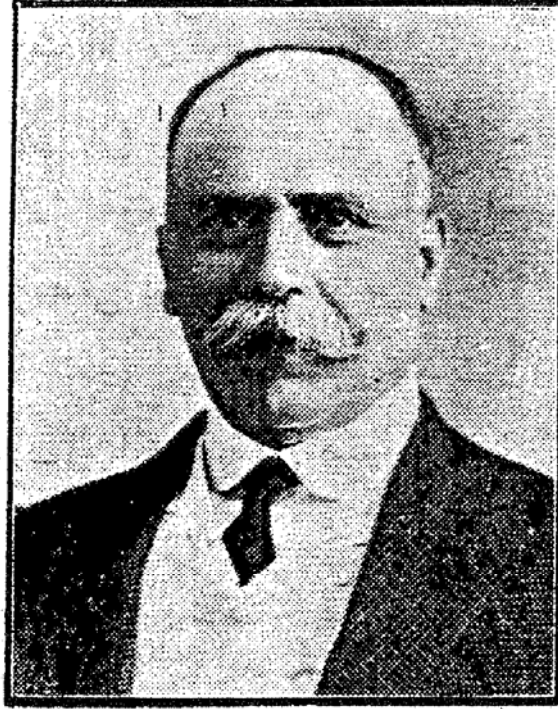


## الاستاذ جبر ضومط



أستاذ اللغة والآداب العربية في جامعة بيروت الأميركية واحد أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق توفاه الله ليلة الاحد الواقع في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ في الثانية والسبعين من عمره بعد ان جاهد في خدمة العلم والادب واللغة العربية اربعاً وخمسين سنة ، وقد أقيمت له جنازة مهيبه وسير بنعشه مرفوعاً على اكف نلاميزه وعارفي فضله الى منندى الجامعة الكبير حيث صُلي عليه ، ثم نقل الى سوق الغرب يشيعه موكب عظيم من زملائه وأصدقائه ونلاميزه ودُفن بكل احترام في مدفن أسرته .

( نشأته ) — كانت ولادة الاستاذ جبر ضومط في ١٤ ايلول سنة ١٨٥٩ في برج صافيتا من اعمال طرابلس الشام من ابوين فاضلين ولكنه مالبث ان مُني بفقد والده وهو في الثانية من عمره فقامت والدته بتربيته وأحسنات فيها مع انه كان وحيداً لها . تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة المرسلين الاميركان - في مسقط رأسه ثم انتقل

منها الى مدرسة عبيه العالية ١٨٧٠ ودرس فيها سنتين متواليتين استعداداً لدخول المدرسة الكلية في بيروت وفي سنة ١٨٧٢ التحق بالقسم العلمي من هذه الكلية ( بكلية العلوم والآداب ) ونال رتبة بكالوريوس علوم ١٨٧٦ وكان ممتازاً بقوة عقله ومقدرته على حل المسائل الرياضية .

( حياته التعليمية ) — بعد ان أحرز البكالوريا قصد حمص وعلم في مدرسة المرسلين الاميركية نحو نصف سنة ثم انتقل منها الى طرابلس الشام ونولي التدريس في مدرستي الاميركان العاليتين فيها مدة ثماني سنوات . كان في خلالها يطالع مؤلفات الفيلسوفين هربوت سبنسر وتشارلس دارون وقد نشرت بعض مقالاته في ذلك العهد بمجلة المقتطف والنشرة الاسبوعية في بيروت .

( أسفاره وأعماله فيها ) — وكأنه سئم التدريس المتواصل وهو لا يزال في إبان شبابه وعنفوان طموحه فغادر طرابلس في سنة ١٨٨٤ الى الاسكندرية واشتغل مدة في إدارة جريدة المحروسة وترجم لها كتاب دفاع عن عرابي باشا لحام انكليزي . ثم يرحل الى مصر وكانت بريطانيا العظمى في حاجة الى تراجمة للعملة السودانية التي عبأها لانقاذ غردون باشا فتطوع الاستاذ ضومط مع صديقه جرجي زيدان لهذه الخدمة وعينا ترجمائين في تلك الحملة وصحبها الى السودان وعادا في العام التالي بعد ان غابا من اختبارات الحملات العسكرية وأهواها ما غاباه — وما بقي اثره بليغاً في نفس الاستاذ ضومط أورثه الكره الشديد للسياسة الاستعمارية كل ايام حياته .

وأقام الصديقان جبر ضومط وجرجي زيدان في بيروت بدرسان العبرانية والسريانية استعداداً للاشتغال في إحدى جامعات اوربا . وصافرا الى انكلترا وأقاما في لندن مدة من الزمن يترددان الى المتحف البريطاني وإلى بعض مكاتب لندن الشهيرة . اما الاستاذ ضومط فقد كان من نتائج درسه لثانين اللسانين انه وضع باكورة مؤلفاته كتاب « خواطر في اللغة » ثم عاد الصديقان الى الوطن للعمل بين اخوانهم .

( استئناف الخطة التعليمية ) — كان الاستاذ ضومط قبل سفره الى بلاد الانكليز قد علم في مدرسة كفتين العالية للروم الارثوذكس بضعة اشهر فلما آب من سفره عاد الى وظيفة التعليم في هذه المدرسة ولازمها ثلاثة أعوام حتى انتدبته الكلية السورية

الانجيلية في بيروت ( الجامعة الاميركية اليوم ) لادارة الدروس العربية فيها وكان ذلك سنة ١٨٨٩ على اثر استقالة سلفه الاستاذ المهندس يوسف افتموس . وقام الاستاذ ضومط بادارة الدروس وأعباء التعليم والتهديب خير قيام مع ما كانت يلاقيه مدرسو العربية من مشبطات الهمم سواء أكان ذلك من اولياء الطلبة ام من الحكومة الحميدية في ذلك العهد .

وقد رت الكلية مواهبه العقلية وجهوده في التعليم فمُنحه رتبة معلم علوم سنة ١٩٠١ ورفعت مقامه الى كرمي أستاذ اللغة العربية سنة ١٩٠٩ على اثر اعلان الدستور ونُذبه الحياة القومية في السلطنة العثمانية .

( مؤلفاته ) — وبما يدل على مقدرة الاستاذ ضومط العقلية واجتهاده العلمي مع انه كان يلقي الدروس العربية بنفسه على الصفوف العالية و يقوم بالواجبات المدرسية المتعددة وكان رب أسرة كبيرة — فانه تمكن مع كل ذلك من وضع المؤلفات القيمة في الموضوعات التي درسها .

كانت باكورة مؤلفاته خواطر في اللغة — الكتاب الذي طبعه بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٦ وقد تناول فيه اكثر المبادي التي سارت عليها اللغة في نشوئها . قال الدكتور بعقوب صروف ( في المقالة التي أعدها قبيل وفاته لتُتلى في بوبل الاستاذ ضومط الذهبي ) « المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قل منهم من يُبقي أثراً بذكره . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومئتي سنة الى الآن يعدون بالمئات او الالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيديويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو . ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من يبحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها ونصارفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعد بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغته . وهذا شأن العربية — ولكني لا أعلم ان احداً أطلق هذا البحث على العربية من ابناءها قبل الاستاذ جبر ضومط . . . والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع لمعرفة العبرانية والسريانية . . .

ولو عرف الحميرية والحبشية لژاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض . فهو مثل ورثر وآيل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك ودارون في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعضها ، ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء . . فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلعا من العربية والسرانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية ؟ » .

وألف كتاب الخواطر الحسان في المعاني والبيانات وطبعه بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٨٩٦ ونحا في تأليفه نحواً جديداً يلائم حال الطلبة في هذا العصر وما هم عليه من تعدد الدروس اليومية وانقلاب نسق التدريس من مجرد سماع شرح الاستاذ الى أمثلة معينة يكلفون درسها بانفسهم واستخراج ما فيها من المعاني . وقد أكثر من الأمثلة والايضاحات والاعادات على ما يقتضيه الاسلوب التعليمي لكي يقرب لافهام الطلبة ما كان بعيد المنال عليهم . .

ثم لم يلبث ان أردف كتاب الخواطر الحسان بكتاب فلسفة البلاغة وطبعه بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩٨ وقد حاول في هذا المؤلف ان يقرر المبدأ العام الذي ننهي اليه كل قواعد البلاغة وننشعب عنه جميع فروعها وضوابطها الكثيرة وهو الاقتصاد على انتباه السامع وعلى التأثير فيه . .

وكانت الحاجة ماسة الى مؤلف جديد في علم النحو فنشط الاستاذ ضومط لسد هذه الحاجة ووضع كتاب الخواطر العرب في النحو والاعراب وطبعته المطبعة الادبية في بيروت . وقد أراد به ان يكون لفهم الطالب اكثر مما هو لحفظه ولتنشئة التلميذ على الاعتقاد ان علوم اللغة ومن بينها النحو هي علوم خاضعة لاحكام العقل يتصرف فيها بما يناسب المصلحة والغاية لا مستعصية عليه مستبدة به . وان آراء النحاة حتى المشهورين منهم ان لم تطابق المنقول عن اللغة فيما يحتاج فيه الى النقل او المقول فيما يحتاج فيه الى العقل فهي مما لا يعتمد به . .

ومما يدل على ما أحرز كتاب الخواطر العرب من المكانة عند أئمة اللغة كتاب بحث به الطيب الذكر المرحوم الشيخ محمد عبيد مفتي الديار المصرية قال فيه يخاطب

الاستاذ ضومط — « قصرت في الاسراع الى شكرك لما أنجفت به اهل لغتك من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة — كتاب لم نلتك فيه فضيلة الابداع ، ولم ننقصك منزلة حسن الاتباع . افنفت اثر سلفك في تجويد الرأي واحترام مقام العقل ، فلم يهبط بك التقليد الى ما يحيط بالعمل و يسقط من قيمة الكد في الجد . ثم ابتدعت في تركيب كتابك على ما هو أقرب الى الفهم وأدنى الى التقريب من حقيقة العلم . . . جزاك الله عن نفسك خير ما يجزى به عامل عن عمله ، وجزاك عن أهل لغتك أفضل ما يجزى به محسن عن احسانه » .

وكان كاتب هذه الرسالة بدرّس علم الصرف في الدائرة الاستعدادية من المدرسة الكلية في ذلك العهد وكان الاستاذ ضومط لا يزال ينوي تقيم مؤلفاته في علوم اللغة فاتفقنا على وضع كتاب « فك التقليد » في علم الصرف وطبعناه في المطبعة الادبية سنة ١٩٠٥ وقد قلنا في مقدمته اننا تطاولنا فيه الى الدعوى اننا نجتهدون لم نبتع ولم نقلد . وسواء أصبحت هذه الدعوى ام لم تصح فانبأ ننبه بها كثيرين الى ان الاجتهاد في هذا الفن لم يزل بابه مفتوحاً لكل مؤلف . وحسبنا ان ننبه الخواطر الى هذه الحقيقة الراهنة ، فان اكثر الطلبة والمدرسين ان لم نقل كلهم يؤخذ من ظاهر أحوالهم انهم يعدون علم الصرف من العلوم التي أغلقت فيها باب الاجتهاد فما كتب فقد كتب لا يجوز لمؤلف ان يتطاول الى خلاقه . وفي هذا ما فيه من جمود الفكر وجمود لغتنا العربية الشريفة على ما كانت عليه في علم أفراد قلائل منذ بضع مئات من السنين الى الآن » .

وكان آخر ما نشره الاستاذ ضومط بحث في من هو كاتب سفر التكوين وأجاب على سؤاله هذا بقوله هو يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم لا موسى الكليم — بانيارأبه هذا على ما استنتجته من درس اسفار العهد القديم ولا سيما الاسفار الخمسة ونقد سفر التكوين وتحليله باعتبار ان يوسف كاتبه لا موسى .

وقد جمعت المقالات التي نشرها الاستاذ ضومط في مجلتي المقتطف والهلل وطبعنا معاً في كتاب واحد بمطبعة المقتطف سنة ١٩٢٩ تحت عنوان فلسفة اللغة العربية وتطورها .

( نقاعده عن التدريس ويوبله الذهبي ) — وفي سنة ١٩٢٢ نقاعد الاستاذ ضومط

ن أعمال التدريس فأطلقت عليه عمدة الجامعة لقب أستاذ شرف للغة العربية . وفي أواخر نيسان سنة ١٩٢٨ احتفل تلاميذه واصدقاؤه الكثيرون بهوبله الذهبي . اقاموا الحفلة في منتدى الجامعة الاكبر وشهدوا جمهور عظيم من وجوه بيروت وادبائها وفضلائها بتقديمهم رئيس الجمهورية اللبنانية واركان حكومتها . وتكلم في الحفلة فريق من زملاء الاستاذ وتلاميذه وتليت رسائل وبرقيات التهنية من الكثيرين ممن لم يتمكنوا من حضور الحفلة . وناب عن المجمع العلمي العربي في دمشق الاستاذ فارس بك الخوري . ومما زاد في رونق ذلك اليوم ان نخامة رئيس الجمهورية اللبنانية قام في مستهل الحفلة وعلق على صدر الاستاذ ضومط وسام الاستحقاق اللبناني وقد اهدت اليه ايضا رئاسة حكومة سورية الجبلية وسام الاستحقاق السوري .

( اخلاقه وصفاته العلمية ) — تحلّى الاستاذ ضومط بصفات المعلم الصالح — امتلك ناصية الموضوعات التي كان يدرسها بما خصه الله من قوى العقل الثاقب ومن الجهد في الاكباب على الدرس والنقضي في المسائل التي كانت يعالجها . اکتسب محبة تلاميذه واحترامهم بفزارة علمه وكرم اخلاقه — بلطفه في معاملتهم واخلاصه في ارشادهم وقد كان يجرهم بحري بنيه . اختط لنفسه أسلوباً جديداً في التعليم وحبب الى تلاميذه درس العلوم العربية على صعوبتها . كان مع جرأته العلمية وديماً متواضعاً بعيداً عن الدعوى لا يغمط حق زميل او يحاول الخط من كرامته اذا تحدث عنه . كان ذا شخصية محترمة عالماً عاملاً بعلمه لا يكذب قوله فعله . وفوق هذا كله كان شديد الوطنية يحض الناس على التشبث بكل ما يعزز الوطن ويحفظ بمقوماته الادبية والاقتصادية والاخلاقية . وان في كثير من خطبه العمومية ومن المقالات التي نشرت في الجلات ما يؤيد ذلك . هذا غيض من فيض مما يجب ان يقال في أستاذنا الفقيه الخالد الذكروفي ما خلف بعده من الاثر الباقي والسيرة الصالحة .

بيروت :  
بولس الخولي  
عضو المجمع العلمي العربي